﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1]

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾ [إبراهيم]

لأن الذى يُجتثُّ لا ثبوتَ له ولا استقرارَ ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

وتُوحِى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطرأ عليه الأحداث التى هى نتيجة لاختيار المُكلَّفين فى نفاذ حُكْم أو إبطاله ، فالمُكلَّف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفِّذه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلّف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفِّذ هذا المخالفُ تعاليمَ المنهج ؛ ويؤذى مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إنْ قريبٌ أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثَبِّتهم بها

---

(١) قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البراء بن عازب أنه قال : نزلت فى عذاب القبر [تفسير القرطبى ٣٧٠١/٥] .

مهما كانت جسامة الأحداث ؛ ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت ؛ فهو لا يتعرَّض لزيغ[1] القلب ؛ ولا يتزعزع عن الحق .

والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المُثبِّت ؛ فحين يُخلْخَل عمود في جدار البيت ؛ فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائمَ لتثبيت هذا العمود ؛ ويتبادل الناسُ الإعجابَ بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التي كادتْ أنْ تنهار ، وهذا ما يحدث في عُرْف البشر ؛ فما بَالُنا بما يمكن أنْ يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

يرُدك إلى المُثبِّت الذي لَنْ يطرأ على تثبيته أدنى خَلَل . وكلمة « التثبيت » دَلَّتْنَا على أن الإنسان ابنُ أغيار ؛ وقد تحدثُ له أشياء غَيْر مطابقة لما يريده في الحياة ؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاّ يَخُور ؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبِّت الذين آمنوا :

﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الزيغ : الميل . زيغ القلب : الميل عن الهدى والقصد . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

والقول ثابت ؛ لأنه من الحَقِّ الذى لا يتـغيَّر ؛ وهذا القَـوْل مُوجَّه للمـؤمنين الذين يواجهـهم قَوْم أشـرار اختـاروا أنْ يكونوا علَى غـير منهج الله .

وهذا القـول يوضح للمـؤمنين ضرورة أن يـهدأوا ؛ وأنْ يجـعلوا أنفسهم فى معيَّة الله دائماً ، وأنْ يعلموا أنّ الظالمَ لو علم ما أعدَّه الله للمظلـوم من ثواب وحُـسْن جـزاء لَضَنَّ الـظالم بظُلْمـه علـى المظلوم ولَقَال : ولماذا أجعل الله فى جانبه ؟

والذين اضْطهدوا فـى دينهم ؛ وقام الكفار بتـعذيبهـم ؛ لم يُفْتَنوا فى الدين ؛ فكلما قَسَا عليهم الكفـار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنانَ الحقِّ فتحمّلوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحُسْن الجزاء قد يكون فى الدنيا التى يُثبِّت فيها المؤمن بمشيئة الله ؛ وهى بنت الأغيار وبنت الأسباب ، فأنت فى الدنيا تحوز على أىِّ شىء بأن تتعبَ من أجل أنْ تحصلَ عليه ، وتكدَّ لتـتعلم ؛ وتعثر على وظيفـة أو مهنة ؛ ثم تتزوج لتُكوِّن أُسْـرة ؛ وتَخدُم غيـرك ؛ ويخدُمك غيرك ، وتزاول كل أسـبابك بغيرك ؛ فأنت تأكل مـما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو مَنْ تستخدمه ليؤدى لك هذا العمل .

باختصار كلما ارتقيتَ ؛ فأنت ترتقى بأثر مجهود ما . وكُلّ متعة تحصل عليها إنمـا هى نتيجة لمجهـود جَادٍّ منك ؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلِّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فَما بالُكَ بالآخـرة التى لا تكليفَ ولا أسبابَ فيها ؛ وكل مـا فيها قد جهَّزه الحق تعالى مقـدّماً للإنسان ؛ ثواباً إنْ آمنَ ، وعذاباً إنْ كفر وعـصى ، وإنْ كنتَ مؤمناً فـالحق سبحـانه يُجازيك بجنة عَـرْضهـا السماوات والأرض ؛ فيها كُلُّ ما تشتهى الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثَبِّت الذين آمنوا فى الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبيتُه لهم فى الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ..(٢٧)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الارتقاءات الطُّموحية فى الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها ، ولكن الأمرَ فى الآخرة يختلف تماماً ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى يُجازى على قَدْر طلاقة مشيئته ، وهو يُثبِّتهم بدايةً من سؤال القبر ونهايةً إلى أنْ يَلْقوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير فى سبيل الله .

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيتَ فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يأتىَ بالمقابل ، ويقول :

﴿وَيُضِلُّ[1] اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضلّ الظالم لأنه اختار أنْ يظلم ؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حَقَّ الاختيار ، فَمنَ اختار أن يظلمَ ؛ لا بُدَّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسخراً لهم ؛ وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافرُ كفره ؛ فهو لن يُنفِّذ تكاليف الألوهية التى أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

---

(١) أى : يضلهم عن حجتهم فى قبورهم . كما ضلُّوا فى الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق . فإذا سئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى . فيقول : لا دريت ولا تليت . وعند ذلك يُضرب بالمقامع على ما ثبت فى الأخبار . [تفسير القرطبى ٣٧٠٢/٥] .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أنسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو ربُّ العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطى كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافراً ؛ فسبحانه يمدُّ له فى أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمدُّ الله للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان مصْداقاً لقوله الحق :

﴿ كُلاً نُمدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً[1] (٢٠) ﴾ [الإسراء]

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خَيْر العبد ؛ وقد ذاقتْ البشرية الكثيرَ من وَيْلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْر السيد ؛ ويُغدق السيد إحسانه على عباده .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[2] (٢٨) ﴾

---

(١) الحظر : المنع . والمحظور : الممنوع . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) ﴾ [الإسراء] أى : لا يمنع عطاء الله أحد . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) البوار : الهلاك . ودار البوار : دار الهلاك [لسان العرب - مادة : بور] . والمقصود بها جهنم . قاله ابن زيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره : ٥/٣٧٠٣] . ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار (٢٩) ﴾ [إبراهيم] .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى .. (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشىء فهو أصدق مِنْ أنْ تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبَادلة بين اعتراف بالنعمة ؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتيْنا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقومَ بأىِّ تكليف إيمانىٍّ قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هى الأصل ، والتكليف إنما يأتى من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألاَّ يعصى العبد مَنْ أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة ؛ كى لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء[1] الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) أفاء الله عليه فيئاً : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . [القاموس القويم ٩٢/٢] .

(٢) جبى الخراج والماء : جمعه . وقوله تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١١٧/١] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبى الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبى الذى ستدين له الدنيا والعالم فى كل زمان ومكان ؛ فلماذا يُبدِّلون تلك النعمة كفراً ؟

أمَا كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسْن العبادة ؟ فهذا النبى الذى قال الحق سبحانه عن رسالته :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فكيف يُبدِّلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصَحْبه حتى قال ﷺ : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف »[(١)] .

وخرج لقتالهم فى بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قَبِلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صدْق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لَطلبوا من الأصنام أن تعطيهم ؛ أو لَرفضوا أن يأخذوا خَيْر المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمُقوِّمات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مُقوم الروح .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف .. » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٍّ في مَحَلٍّ . ونعلم أن الظَّرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللْتَ حدثاً محلَّ حَدَث ؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شيء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعني ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بَوَار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غَشّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أنّ قادتهم وأُولي الأمر منهم يسلكون السلوك السيء وعليهم ألاَّ يقلدوهم ؛ فَجرُّوا عليهم الفتن واحدة تلْو أخرى ، وترين(١) الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتحتّ النفس اللوامة المؤمن ؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوّامة إلى نفس أمَّارة بالسوء وجدتْ في المجتمع المسلم مَنْ يزجرها .

---

(١) الرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطي على القلب بسبب الذنوب . وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

وبهذا تصبح أمة محمد ﷺ محصنة ضد الفتن التي تُذهب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

ويُذكِّرنا الحق سبحانه بأن الرسولَ سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كُلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله ﷺ .

ومثلما شهد الرسول أنه قد بلَّغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمة محمد ﷺ أنْ يشهدَ بأنه قد بلَّغ ما علم من رسالة محمد ﷺ .

وكُلٌّ منا يعلم كيف حدثتْ الغفلة الأولى ؛ حيث حدثتْ الغفلة من الأسْوة ؛ فزاحمتهم الشهواتُ وارتكبوا السيئات ، فحين غفلتْ النفس ارتكبتْ المعصية ؛ وحين رأى الناسُ مَنْ يرتكب المعصية قلَّدوه .

وهكذا حمل مَنْ وقع في الغفلة وِزْره ووِزْر مَن اتبعه بالأسْوة السيئة ؛ فصار ضَالاً في ذاته ؛ ثم تحمَّل وِزْر مَنْ أضله أيضاً .

وهكذا صار مَنْ فعل ذلك هو مَنْ أحلَّ قومه دار البوار .

والبوار يعني الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرَّفوا وسلكوا بما يخالف المنهج أورثوا مَن اتبعوهم الهلاك .

ونحن في الريف نَصفُ الأرض التي لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البُور[1] ؛ وكذلك يُقال « قُمْنا بتبوير الأرض » أي : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

نجد في كلمة « قومهم » ما يُوحي بالخسَّة لمَنْ يرتكبون هذا الفعل الشائن ؛ فمَنْ يُهلك قومه لابُد أن يكون خسيساً ؛ ولابُد أن يكون محترف غشٍّ وخديعة ؛ فالقوم هم مَنْ يقومون معهم ؛ وكان من اللائق أن تضرب على يد مَنْ يصيبهم بشرٍّ أو يغشّهم أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول :

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[2] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾

وإذا قسْنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد مَنْ يرغب في أن تكون جهنم هي مقرّه ؛ لأن الإنسان يحب أن يستقر في المكان الذي يجد فيه راحة ، ولو لم يجد في هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التي يَصْلَوْنها لن تكون المقرَّ الذي يجدون فيه أدنى

---

(١) بور الأرض : ما بار منها ولم يُعمر بالزرع . وقال الزجاج : البائر في اللغة الفاسد الذي لا خير فيه . قال : وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها . [لسان العرب - مادة : بور] .

(٢) أصلاه النار : أدخله إياها وأثواه فيها . وصليت النار أي : قاسيت حرّها . وصلّى اللحم : شواه . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلى بالنار . [لسان العرب - مادة : صلى] .

راحة ؛ لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها الحق سبحانه بأنها :

﴿ بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

فكأنهم ممسوكون بكلاليب[1] فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهي تقول :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأنهم قد عَشقوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهي مربوطة بهم ؛ وهي بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ (٣٠) ﴾

والنِّد هو : المِثْل والمُشَابه . وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وأيّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التي أسبغها عليهم ولم يُنزِل لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضي أمراً وتقتضي نهياً ، ولم يُنزل أيٌّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كي يتبعه مَنْ يعبدونهم ؛ ولا ثوابَ على العبادة ؛ ولا عقاب على عدم العبادة .

(١) الكلاليب : جمع كُلاَّب ، حديدة معوجة الرأس ، كالخطاف . [لسان العرب ـ مادة : كلب] .

ولذلك نجد أن مثْل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء ؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعُون أنهم رأوا النبى ﷺ ؛ ويتصرفون مع مَنْ يُصدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبى ﷺ - والعياذ بالله منهم - .

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان ؛ أما مَنْ يأتى ليُخفِّف من أحكام الدين ؛ فيهواه بعض ممَّنْ يتلمسون الفكَاك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نداً لله - والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لِيُضلوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى[1] لنفس الآية « ليَضلوا عن سبيل الله » ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجىء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتى بـ « لام التعليل » كقولك « ذاكر الطالب لينجح » هنا أنت لم تَأْت بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٣/٥) ثم قال : « أما من فتح (أى الياء) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم . أى : عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ، فهذه لام العاقبة » .

لا ، بل كانوا يتصوَّرون أنهم على هُدىً واستقامة ، وهذه تُسمَّى « لام العاقبة » وهي تعني أنه قد يحدث بعد الفعل فِعْل آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى « لام تعليلية » .

ولكن قد يأتي فعْل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريده ؛ كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التي أرادتْ ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم في الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتي التقاطه لموسى ليكون قُرَّة عينٍ له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له !!

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكميّ ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أنْ يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أنْ يُراد به الصَّد عن الطلب بأسلوب تهكميّ .

ونجد في قول الإمام علي - كرم الله وجهه - قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرٌّ في شر بعده الجنة ، ولا خير في خير بعده النار » .

فَمَنْ يقول : إن التكاليف صعبة ؛ عليه أن يتذكّر أن بعدها الجنة ، ومَنْ يرى المعاصي والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبِّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذي يجد ابنه يُلاحق المذاكرة في الليل والنهار ليبني مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كي لا يقع في المرض ؛ فيصبح كالمُنْبَتّ[1] ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً[2] أبقى ، ولكن الولد يرغب في مواصلة الجهد ليصلَ إلى مكانة مُشرِّفة .

وهنا نجد أن كلاً من الأب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلةً لالتقاءات الخير في الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝٣٠ ﴾ [إبراهيم]

قد يستبطئون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتي هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلَّق على غير ميعاد

(١) الانبتات : الانقطاع . ورجل مُنْبت أي مُنْقطع به . [لسان العرب - مادة : بتت] .

(٢) الظهر : الإبل التي يُحمل عليها ويُركب . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

مُحدَّد ؛ قد يأتى فجأة ؛ فَمَنْ يعيش فى معصية إلى عمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وَاهمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهام الله لميعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة فى تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ [1] ﴿٣١﴾ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسول الله ﷺ . وهل معنى هذا أن العباد الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؟ لقد سمعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطع الأمر هو مَنْ حقَّق شَرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتنفات كلمة « عبادى » فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين يؤمنون فهم سيُعبِّرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفهم معنى الألفاظ لتستقيمَ معانيها فى أساليبها .

وكل خَلْق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله فى طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مخالفتها ؛ فهو سبحانه قد قهرهم فى أشياء ؛ وخيَّرهم فى أشياء .

---

(١) خلال : إما جمع خُلّة أو مصدر خالّه . والمعنى : إن يوم القيامة لا ينجى من عذابه شىء ، فلا يباع فيه شىء بمال يفتدى الكافر نفسه به ، ولا صداقة تفيده ، فلا صديق يُغنى عن صديق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

ولذلك أقول دائماً للمُتمرِّدين على الإيمان بالله : لقد ألِفْتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحد منكم على رفض التمرّد ، فإنْ كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أنْ تتمردوا على التنفس ؛ فهو أمر لا إرادى ، أو تمردوا - إن استطعتُم - على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم ألِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عباد الله » ، وإنْ لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقرىء كلمة « عباد» وكلمة « عبيد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا(١) وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(٢) قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهى مُلْتصقة بمَنْ يتمردون على منهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

---

(١) الهوْن : الرفق واللين والتثبت . والهوْن : السكينة والوقار والسهولة . [لسان العرب - مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدَّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو فى اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ فى أن كلمة « عباد » إنما تستخدم فى وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه فى الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه فى أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. (٣١)﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لِيُنفِّذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفِّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفِّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدعون[1] لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى جَمْهرة آيات القرآن[2] تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامةَ الصلاة تتطلب

(١) صدعت إلى الشيء : ملْتُ إليه . [لسان العرب ـ مادة : صدع] .
(٢) جاء هذا فى أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منّا يحاول أن يجمع الصلوات إلى آخر النهار ، ويُؤدّيها جميعها قضاءً » . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدَّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبل المصلى على العمل بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] .

والصلاة فى كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هى جمَاع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جمَاع قيام الحركات العضلية كلها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة »(١) .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ فى الأركان الخمس للدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً(٢) .

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصلْحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى فى سننه (٦١/٧) والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سراً كى لا يقع الإنسان فريسة المُباهاة ؛ والإنفاق علناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبى ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك »[(١)] .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلمَ الناس أنك تُؤدى ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية ، وعِظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذى يبنى مسجداً ؛ يعطى القادر غيره أُسْوة ليبنى مسجداً آخر ، وما أنْ يأتىَ رمضان حتى يصومَ القادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾ [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفِّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّى أو يُصلّى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به فى الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هى ما أذن له الرحمن بها[1] ، ولذلك يأتى الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتىَ اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع ـ كما نعلم ـ هو مُعَاوضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أى : الصديق الوفىّ الذى تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمّا التقيْنَا قرَّب الشَّوْقُ جَهْده   خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابا

كأنّ خليلاً فى خِلاَل خَلِيله   تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعنى أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفى الآخرة لن تستطيع أن تشترى جنة أو تفتدى نفسك من النار ؛ ولا مُخَالّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه] ويقول أيضاً : ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. (٢٣)﴾ [سبأ] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع فيه بعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخذوا على القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل :

﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿ وَلا خُلَّةٌ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

ثم أثبت الخُلَّة للمتقين ؛ الذين لا يُزيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحسنون تدبُّر القرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية ـ أو الخِلاَل المنفية ـ في الآيات هى الخِلال التى تحضُّ على المعاصى ؛ وهذه هى الخِلاَل السيئة .

ونعلم أن البيع فى الحياة الدنيا يكون مقابلةَ سلعة بثمن ؛ أما المُخالَّة ففيها تكرُّم ممَّنْ يقدمها ؛ وهو أمرٌ ظاهريّ ؛ لأن فى باطنه مُقايضة ؛ فإذا قدَّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقتضى أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرَّد فهو الذى يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثَل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثَل بالكلمة الخبيثة ، يأتى من بعد ذلك بما يهيج فى المؤمن فرحةً فى نفسه ؛ لأنه آمن بالله الذى صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول :